عبقرية محمد الإدارية

ملكات شخصية:

فى الإسلام أحكام كثيرة مما يدخل فى تصرفات رجال الإدارة كما نسميهم اليوم، وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات، كالمساناة والمبايعة والاستفراض والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدى بها المشترعون فى جميع العصور.

ولكنا لا نريد بما نكتب عن النبى أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين، فهى مشروحة فى مواطنها لمن شاء الرجوع إليها.

وإنما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هى ملكات شخصية وسلائق نفسية. تلازمه حيث كان مؤديا لرسالة الدين، أو مؤديا لغير الرسالة من سائر أعمال الإنسان.

كذلك لا يعنينا مثلا أن نتكلم عن "الإدارة" كأنها نصوص المنشورات و"اللوائح" التى تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة فى مكاتب الحكومة، فإن هذه وما إليها هى أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين، وإنما نعنى الملكة الإدارية من حيث هى أساس فى التفكير: من اعتمد عليه استطاع وأن يقيم بناء الإدارة كلها على أسس قويمة، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق.

فليس فى وسع رجل مطبوع على الفوض مستخف بالتبعة أن يؤسس إدارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة.

أما السليقة المطبوعة على إنشاء الإدارة النافعة فهى السليقة التى تعرف النظام، وتعرف التبعة، وتعرف الاختصاص بالعمل، فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه.

وقد كانت هذه السليقة فى محمد ﷺ على أتم ما تكون.

كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعى أو العمل المجتمع الذى يحتاج إلى تدبير. ومن حديثه المأثور: "إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم" . . ومن أعماله المأثورة أنه كان يرسل الجيوش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة إذا أصيب من تقدمه بما أقعده عن القيادة، وكان قوام الرئاسة والإمامة عنده شرطان هما جماع الشروط فى كل رئاسة، وهما الكفاءة والحب: "أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين" .

و"أيما رجل أم قومًا وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه" .

وكان إلى عنايته بإسناد الأمر المدير القادر عليه حريصا على تقرير التبعات فى الشئون ما كبر منها وما صغر، على النهج الذى أوضحه صلوات الله عليه حيث قال: "كلكم مسئول عن رعيته فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده ومسئول عه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" .

وقد كانت أوارم الإسلام ونواهيه معروفة لطائفه كبيرة من المسلمين أنصار كانوا أو مهاجرين، ولكنه ﷺ لم يترك أحدًا يدعى لنفسه حقا فى إقامة الحدود، وإكراه الناس على طاعة الأوامر، واجتناب النواهى غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس.

فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلاً من المشركين غضب ﷺ، وقال فيما قال من حديثه المبين" . . . فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها رسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة. . . " ولما أراد أن يصادر الخمر نهج فى ذلك منهجا يقصد به إلى التعليم والاستنان كما جاء فى رواية ابن عمر حيث قال: "أمرنى النبى ﷺ أن آتيه بمدية، فأتيته

بها، فأرسل بها فأرهفت ثم أعطيناها فقال اغد على بها، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام فأخذ المدية منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطينها، وأمر الذين كانوا معى أن يمضوا ويعاونونى، وأمرنى أن آتى الأسواق كلها فلا أوجد زق خمر إلا شققته ففعلت، فلم أترك فى أسواقها زقا إلا شققته".

وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبى الذى يبين الحرام ويبين الحلال فالخمر شربها وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين، من تفقه منهم ومن لم يتفقه فى الدين، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغى أن تكون فى يد ولى المسلمين تحريم وتحليل، ولكنها مسألة إدارة وتنفيذ فى مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والأهواء، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان، فلم يكتف النبى ﷺ بصريح التحريم فى القرآن ولا اكتفى بإسناد الأمر إلى غير معروف الصفة فى تنفيذ الأحكام، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلا بعينيه وأناسا بأعينهم أن يمضوا فى إتمام عمله، ولم يجعل ذلك إذنا لمن شاء أن يفعل ما شاء.

وما أكثر ما سمعنا فى أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام، وتوطيد أركان الشريعة والقانون، ولكننا لا نعرف فى كل ما قيل كلاما هو أجمل لوجوه الصواب فى هذه المسألة من قول النبى: "السمع والطاعة حق لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت: "... ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان". ومن قوله: "الإمام الجائر خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفى بعض الشر خيار" ومن قوله: "إن الأمر إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم" إلى أحاديث فى هذا المعنى هى جماع الضوابط التى تقوم عليها الإدارة الحكيمة، والخطط السليمة المستقيمة، بين أمر ومأمور.

نظام وفوق النظام سلطان، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل

لاشك فيه، وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء.

هذا الإلهام النافذ السديد فى تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات، هو الذى أوحى إلى الرسول الأمى قبل كشف الجراثيم، وقبل تأسيس الحجر الصحى بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، أن يقضى فى مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفضل الخطاب الذى لم يأت العلم بعده بمزيد، حيث قال: "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها". فتلك وصية من ينظر فى تدبيره إلى العالم الإنسانى بأسره لا إلى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد، إذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء فى مكانه، وليس من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعريض المدن كلها لعدواها.

تدبير الشئون العامة:

على أن الإدارة العليا إنما تتجلى فى تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع، فليست الإدارة كلها نصوصا وقواعد يجرى الحاكم فى تنفيذها مجرى الآلات والموازين التى تصرف الشئون على نسق واحد، ولكنها فى كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك.

وذلك هو المجال الذى تمت عبقرية محمد فى حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه الآراء، وأدناها إلى السلم والإرضاء.

صنع ذلك حين اختلفت القبائل التى أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود فى مكانه، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بإيثار إحدى القبائل على غيرها ولو جاء الإيثار بن طريق المصادفة والاقتراع، فأشار محمد بالرأى الذى لا رأى غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجول:

فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل الزعيم فى طرف من أطرافه، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان، وأن يتسلف الدعوة وفى مكتوبة فى طوايا الزمان، ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنان.

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة إلى المدينة فاستقبله الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله، وهو يشفق أن يقدح فى نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة، فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك، وفصلت فيما لو فصل فيه إنسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها، ولو أمنت فى تلك الساعة على دخل وسوء طوية..

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسا من أهل مكة الضعيف إيمانهم على أناس من الأنصار الذين صدقوا الإسلام ثبتوا على الجهاد، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه إلى إرضائهم بالحجة التى لا تغلب من يدين بها، بل تريد أنه هو الغالب الكاسب وأنها تصيب منه المقنع والإقناع فى وقت واحد: "أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى أسلامكم؟.. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى أرحالكم؟.. فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار. اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء الأنصار..."

كلام مدير فيه الإدارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين.. فهو مدير حين تكون الإدارة تدبير أمور، ومدير حين تكون الإدارة تدبير شعور، وهو كفيل ألا يلى مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق إليها الاختلال، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة، وبالاختصاص وبالسماحة، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال، أو لخطل فى إدارة الأعمال.